بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

قال ياقوت : « قاشان بالشين المعجمة وآخره نون مدينة قرب اصبهان منها تجلب الفضائر القاشاني . »واني اتخذت من ثم كلمة قاشاني تعريباً للفظة سيراميك (*Céramique*) ومعناها ، في عرف الافرنج ، الفنّ المختصّ بصنع الخزف او الآجرّ او الفخّار بطرائق علمية ، وهو يشمل منتوجات الصناعة في هذا الصنف من الدارسيني والمينا وغيرها . ولم اجد في ما كتب من حديث[1] وقديم في وصف الزخارف البنائية ومنشآتها لفظاً اصطلح عليه العرب للتعبير عن معنى ذلك الفن الجميل ، وقد تعاطوه على مدى الاجيال ، ونبغوا فيه حتى باروا بحذاقتهم اعظم الصنّاع في هذا الفن من سائر الشعوب . قال غاستون ميجون[2] :

« ما من درس يستنوي العلماء استقراءه سيراميك الشعوب الاسلامية لطلّاب الزخارف الجميلة المتنوّعة . فانها لآيات تشهد لاصحابها بالمهارة وبسلامة الذوق في صنع القاشاني ، وتحسين المينا ، وتنسيق الالوان . ممّا يدلّ على انهم وقفوا على اسرار العظمة في فنّ التوشية ، وفي تصوير الانسان والحيوان والنبات ، وغير ذلك من اشكال هندسية وخطّية ، ونسجوا لها من الجمال حلةً لم يسبقهم اليها فنّ من الفنون . »

واليك ، على صفحات المشرق ، صوراً لبعض المصنوعات القاشانية اخذناها من كتاب ميجون المذكور ومن كتاب آخر ظهر حديثاً لكشلين . وهي مختلفة

(١) راجع عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني ، مصر ١٩٣٧ ، ص : ٦٧ وما بعدها)

(٢) G. Migeon : *Les Arts musulmans*

المصادر زماناً ومكاناً[1] منها من مصر ، ومنها من الشام او العجم . وان صاحب التاريخ المهتم باكتشاف فضل الشعوب بعضهم على بعض في ترقي الفنون والصناعة ، ينظر الى تلك الآيات الفنية ويسأل من اين هي ؟

ان رحلات علمية متفرقة افرنسية والمانية نقبت على آثار القاشاني في سوس ، وفي الري ، وفي سامرا ، وغيرها من الاماكن مثل بغداد ، ودمشق ، والفسطاط ، وفي الاناضول ، فعثرت على قطع عديدة جمعتها وارسلتها الى اصحاب المتاحف في اوربة . فجبروا رميمها ما استطاعوا ، وفحصوها ، واقروا في امرها انها عراقية او عجمية الاصل بالاغلب . واستنتجوا من ثمّ ان التواتر لدليل على ان الفضل في صناعة القاشاني الاسلامي القديم يعود اولاً للعراق او للعجم .

ولكن ظهر حديثاً مقال في مجلة « اريتوز »[2] المخصصة لدرس العاديات من نقود ، وخواتم ، وغير ذلك من الفنون الاثرية ، اتى فيه صاحبه السيد «غالو» على تحليل مؤلف وضعه العلّامة برتلر الاستاذ في اكسفرد وقد تناول فيه البحث في اصل القاشاني الاسلامي القديم ، واستنتج منهُ ان مسقط رأس القاشاني هو ارض الفراعنة ، وهي التي لقنت فنه الشعوب الذين احتلوا ارضها من رومان وعرب . فلا يرى اذًا ان اصل القاشاني من بغداد ، ولا من الري ، ولا من الفسطاط . واليك بعض براهين على ذلك :

في العام ٧٦٢ بنى المنصور مدينة بغداد فصارت عاصمة الخلافة سحابة خمسة قرون . وشاد فيها قصراً وفي وسطه قبة زرقاء . واستجلب لبناء القصر الصنّاع من فارس وبابل والشام والموصل . ومضت الايام ، واحتمل الاتراك العاصمة فاضطرّ المعتصم الى ان يهجر بغداد الى سامرا . وها ان اعمال التنقيب ، بعد نيف عن الف ومئة سنة ، قد كشفت في يومنا عن قطع من القاشاني في غاية ما انتهى الفن اليه من اتقان . هي صحون قبطية مزخرفة اشبه بالاواني المعدنية ، والواح بلاط مغشّاة بالمينا البيضاء الكثيفة اللمّاعة ، أفتكون بغدادية الاصل ؟ كلا ! لانها اتقن فنّاً ، واجمل صنعاً ، من ان يأتي بها من هم حديثو العهد بالصنعة . نعم لقد وجدت في بغداد ، إنما انتها من الخارج وان ما يقال عن آثار بغداد

(١ R. Koechlin : *La Céramique* ; *Morassé* (٢ *Artibuse, 1928, p. 136 sqq.*

لصحيح ايضاً في ما ينسب الى سامرا. وليس اصل ذلك القاشاني من الري او من بلاد الفرس. وليس ما ينسبه ياقوت الى الري من امثال تلك الآثار الفنية دليلاً قاطعاً على انها نشأت في العجم . جاء في معجم البلدان :

« اما الري المشهورة فاني رأيتها وهي مدينة عجيبة الحسن مبنية بالأجر المنقش المحكم الملمع بالزرقة مدهون كما تدهن الفضايير في فضاء من الارض . . . وكانت مدينة عظيمة خرب اكثرها . واتفق انني اجتزت في خرابها سنة ٦١٧ (١٢٢٠م.) وانا منهزم من التتر فرأيت حيطان خرابها قائماً ومنابرها باقية وتراويق الحيطان في حالها لقرب عهدها بالخراب »

ومعروف ان التتر دمّروا مدينة الري مرتين سنة ١١٨٦م. اما الشهيرة من الاواني الخزفية التي اكتشفوها فيها فمهدها يرقى الى ما بعد دمار المدينة ، الى ١١٨٩ ، والى ١٢١٠ ، والى ١٢١٧ ، فليس من المعقول انها صُنعت فيها اذ يكون الاهلون في مثل تلك الايام العصيبة مشغولين عن الزخارف الكمالية بالحاجيات.

قال المؤلف: ولم تكن مدينة الفسطاط في مصر القديمة مسقط رأس القاشاني الاسلامي القديم ، لان الفسطاط كانت حصناً رومانياً فاتخذه عمرو بن العاص مقاماً له. وليس في آثار الفسطاط دليل قاطع على وجود معامل للقاشاني الاسلامي القديم فيها ، لان المرء يعثر في انقاضها على انواع من الفخار الشتى منها العربي ومنها الصيني . ولما كان وجود الصيني غير جازم بوجود معمل للفخار الصيني في الفسطاط ، كذلك ليس من المؤكد ان وجود القاشاني العربي لدليل بات على ان منشأ القاشاني الاسلامي هو الفسطاط.

وفي الحالة التي اوصلنا اليها العلم قد يكون من المعقول انه كان في مصر في اواخر العصر البيزنطي ، وفي اوائل الاسلام ، صنّاع عريقو الخبرة في صنع القاشاني ، متعلمون استعمال المعادن في صنع الفخار منذ القدم. فيكون من ثم اصل القاشاني الاسلامي القديم من وادي النيل . . . هذا ما لم تحدث اكتشافات جديدة في قسطنطينية ، او في انطاكية أمّ الشرق ، او في الري ، فتضطرنا الى النزول عند حكم جديد ، وسبحان من تنزّه عن الضلال.